حركة الرواد

تجربة اجتماعية خطيرة في مصر

كانت المحاضرات التي ألقيت في المؤتمر السنوي السادس الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية (٧ — ١٤ فبراير) بكلية نخبة مختارة من فضلاء القوم وكبارهم وشبابهم المثقف . فقد ألقى به الدكتور علي بك إبراهيم خطبة علمية تاريخية في « السجاد » والدكتور مشرفة خطبة « في الجسيمات المكتشفة حديثاً في علم الطبيعة » والدكتور شحاتة في « التأمين على الجنين » ورئيس تحرير المقتطف في « الأشعة الكونية » والدكتور جورجي صبحي في « اللهجات العربية العامية في مصر وسوريا »

وكان ممتع المقام خطبة لصاحب العزة احمد محمد حسنين بك موضوعها « اتجاهات جديدة في الاصلاح الاجتماعي في مصر » وصف فيها حركة اجتماعية خطيرة الشأن بالغة النفع تعرف بحركة الرواد . ونرأينا ان نثبت هنا ما قاله في وصف هذه الحركة المباركة

من منا لم يقض حيًّا بلديًّا من أحياء القاهرة . ماذا اذن في مثل هذا الحي نرى . انا لنقع على حياة رخيصة زرية . مظلمة منحطة . نرى طرقاً ضيقة قذرة . أزقة مبتلة متسخة . فضلات ملقاة على الجانبين . مساكن كالكهوف ضيقة ضئيلة منكمشة . مآوٍ متداخلة بعضها في بعض كأنها أعدت لطائفة من الاشباح ، ليس فيها منفذ للشمس أو مسرب لهواء . رجال خاوون كأنما يستبطئون مقدم الموت . العاطل فيهم أداة سقيمة صماء . لا رأي له في شيء ولا يفكر الا في أفق أولي غاية في الضيق . والمعطل منهم لائذ بالمقهى . يقضي يومه بين أن يسمع شرًّا أو يأتي شرًّا أو يفكر في شر . ورجال تُسمِّع خاملون نهشت المخدرات في هيا كلهم نهشاً . فامت فيهم كرامتهم . وضاعت منهم كبرياؤهم وانتفى فيهم كل معنى من معاني القومية . لا نخوة لهم ولا خلاق . يضيع حقهم فيستلبونه . يُنتَلُّ من عزهم فلا يشعرون . ما أيسر أن يضيمهم مضيم وما أسهل ان يستهين بهم مستهين . لا يدركون انهم شيء يجب ان يحسب له حساب . ولا يقدرون لانفسهم وزناً في نظر الناس . لانهم لا يقيمون لاشخاصهم هذا الوزن في نظر أنفسهم . اولئك هم رجال الحي . أما نساؤه فقد طمس عليهن الجهل . فشاعت القذارة في أنفسهن ، وبيوتهن ، وأولادهن ، في هذا المحيط المظلم ، وفي تلك البيئة التي أفسدها الجهل والامية . ينشأ الطفل مهملاً متأثراً باخلاق هذا الوسط . وتنشأ البنت محملة تراث هذا العرف الاجتماعي السيء . والاطفال الذين تتولى أمرهم وهم صغار . هم الذين يتولون أمر أبنائهم وهم كبار . وبنت اليوم هي أم الغد . والام هي الامة

أنعمنا جولة في جوانب الحي . ورأينا في ما رأينا سوءاً في السيرة وضعة في المعاملات . اسفاف في كل مرفق من مرافق الحياة

تلك جولة قصيرة في حي من أحيائنا البلدية . وهذا رسم اولي عام لناحية من حياته العادية والذهنية والنفسية . ولئن فرضنا أن حال القرية ليست بأسوأ من هذا الحي حالاً ، وان مآلها ليس بشر منهُ مآلاً . استطعنا ان نرسم رسماً مكبراً لافق المجتمع المصري ؛ وان ندرك في ضوء هذا الرسم المتسع مدى ما ينتهي اليهِ هذا المجتمع من فساد وضعف . فما صدى ذلك كلهِ في أنفسنا نحن المتعلمين . دعاة الاصلاح . نحن ننتقد ونعيب ونندد الساوي . وقد نتسرع في النقد . ونسرف في التنديد . وكأنما بهذا قد أدّينا واجبنا ، فلا نصنع من بعده شيئاً . بل أنا لنشتطُّ في تصوير الامر ، فنوهم أنفسنا ، ويلذ الوهم ، بأننا قد أصلحنا ، وان ما سقنا من نقد وسرد معايب . وقدمنا من نعي وتنديد . وكنا من قدح وتشهير . منة كبرى يجب ان يشكرها لنا أولئك البؤساء المساكين ؛ وخدمة جلّى يجب ان يقدرها لنا أبناء هذا المجتمع الوضيع . ولقد يحلو ان نتحزن ونتفجع ، وتندب حظنا ونتوجع ، ان نكون ظليمة شعب هذا بعض أمره . وان نكون نحن ، المتخرجين في المدارس العليا والجامعات،الطبقة الراقية لناس هذا شيء من سيرتهم . ولقد رأينا ان نضع الامر هذا الوضع ، ونصوّر صلتنا بالمجتمع ، هذه الصورة النظرية . أما الواقع ، فان هذا الافق المتأخر المنحط انما هو الافق الطبيعي الذي يجب ان نعد نحن المتعلمين من أرقى طبقاته . واذا كنا نحن المغرقين في تقدمٍ لم نعمل عملاً في سبيل رفع مستواه . فما عليهِ اذن من حرج في ان يهبط بنفسه وبنا الى أدنى ما يسف فيه

نعود نتساءل من منا يرضيه ان يتهم بأنهُ لا يحب ان يخدم بلده . من منا يرضيه ان يتهم بأن الوطن آخر ما يصح ان يفكر فيه . مع ذلك فمن منا بسط في سبيل النهوض بهذا المجتمع يداً . من منا من بذل شيئاً من وقته أو ماله أو متاعه من أجل نفر مهمل منسي من أبناء هذا البلد . من منا من وقف من حي بلدي من أحياء القاهرة موقف المصلح العامل . قد يده النظيفة اللينة الى يد من تلك الايدي المتسخة الجافة . ومست بدلته الانيقة الفاخرة جلباباً قذراً بغيض المنظر . من منا من لقن هذا الخامل المستهين بنفسه محاسن الخلال . لقنه الصدق وشجاعة النفس . والاعتماد على الذات ، وأشعره ان هذه الصفات الفطرية هي التي تخلق منهُ رجلاً جديداً ذا كرامة

***

نبتت فكرة الرواد في الايام الاخيرة من عام ١٩٢٩ ، وبدأت تعمل في حيز شخصي محدود ، اساسه الرياضة ، وسبيله القيام بالرحلات والقاء المحاضرات ، وغايته ترويض النفس على ان تألف حياة الخشونة والتقشف ، فقد نالت منها مناعم المدنية الحديثة ، وأثرت فيها تأثيراً سلبيًّا ، هو بعض ما يشيع في نفوس ابناء هذا الجيل من ضعف ورخاء ، وطراوة ولين . غير ان الفكرة ما

ليثت ان اتسمت اذ ادرك الروّاد ان هذا السبيل الذي اخذوا انفسهم به ، وحرصوا على ان يصاحوا من شأنهم على هديه ، ان هو الا نوع من الأثرة المقنعة . فهم يذكرون انفسهم وينسون سواهم ، وهم احق منهم بالاصلاح ، وهم يخدمون اشخاصهم ويهملون الغير وهم اولى منهم بالخدمة . على ضوء هذه الفكرة الجديدة سجلوا دستورهم ، ورسموا مبدأ العمل على رفع مستوى الاخلاق والحياة الاجتماعية في مصر . ولقد تفرّع لهم في هذا الصدد سبيلان ، ورأوا انهم مطالبون بنوعين من الجهود ، يفترقان في منحييهما ويلتقيان في الغاية منهما جميعاً . اما الاتجاه الاول فيقتضي جهوداً تبذل في الطبقات غير المتعلمة طبقات العمال والفلاحين ومن اليهم . واما الاتجاه الثاني فيقتضي جهوداً تبذل في الاوساط المثقفة المتعلمة اوساط الطلبة وشباب الموظفين المستنيرين . هذا ايها السادة بعض الاتجاهات الجديدة التي يمضي فيها الروّاد ابتغاء الاصلاح الاجتماعي . ولئن بدأ الروّاد بالنوع الاول من الخدمة العامة ، فلأنهم رأوا ان حاجة الطبقات غير المتعلمة الى الاصلاح اشد مساساً من الطبقات التي تهيأت لها وسائل التهذيب ، وتفتحت ابواب التثقيف

ولما كانت مذاهب الاصلاح في تلك الطبقات الفقيرة كثيرة متشعبة ، رأينا ان نحصر تفكيرنا في دائرة محدودة ، وان نوجه جهودنا وجهة مضمونة الثمر ، وانتهينا الى ان نضع نواة نبدأ بغرسها في حقل الاصلاح الاجتماعي هي المحلات . فهي ملتقى نشاط الروّاد ، يجد فيها اولئك الغلمان الذين لم تهيئهم الاحوال الى ان يرقوا الى المستوى الاجتماعي المنشود ، جوّاً مشبعاً بروح الاخاء والود ، ووسطاً مهذباً يحرص على رفع مستواهم الاجتماعي . يجدون رجالاً ينظمون لهم اوقات الفراغ ، فمنها ما يتصل برياضة الجسم ، ومنها ما يتصل بتلقين المعرفة ومنها ما يتصل بتهذيب النفس . رجال يأخذونهم باللين ، يعالجون امراضهم الخلقية بالمعروف . ييسرون لهم سبل المعرفة العامة . يغرسون في اذهانهم انهم ناس عليهم واجبات ولهم كرامة . وهذه احدى سبل التضامن الاجتماعي التي لم تسبق مصر ان عرفتها

صحّ الحلم اذن . وافتتح الروّاد في العشرين من نوفمبر سنة ١٩٣١ اول محلة بحي الطبي ، وهو ناحية من حي السيدة زينب ، وفي تلك المحلة ، يلتقي في مساء كل يوم نفر من ابناء هذا الحي ، بعد ان يفرغوا من عملهم اليومي . وهنالك يجمعهم بالروّاد جمع واحد ، وهم رجال مثقفون فمنهم اساتذة بالجامعات والمدارس العليا . ومنهم اطباء ومهندسون . ومنهم محامون وطلبة من الجامعة . شباب نزّاع الى الخدمة العامة . مؤمن بقدسية هذا الواجب . فيتصلون بهم اتصالاً يشعرونهم فيه بأنهم قدوة يجب ان يأخذوا بها ، وانهم اجمعين بنو وطن واحد لا يسمو أحد عن اخيه الا بسمو نفسه . ولا يميز عن صاحبه الا بقوة الاخلاق

واحب هنا ان اصرّح في صوت مسموع ان رسالتنا الادبية التي نعتمد عليها في هذه الخدمة العامة ليست في حشو الرأس بألوان العلوم ، بل في بثّ اصول الفضائل في نفوس هذا النشء . ذلك

لانا نعتقد اعتقاداً ثابتاً ان التعليم قبل التهذيب غرس في غير منبته . وان حاجة هذا المجتمع الى تهذيب النفوس ، امس من حاجته الى تثقيف العقول . الا ان للعلم مناهل سهلة والثقافة سبلها ميسورة ، اما الخلق اذا اعوجّ فكالعود اذا اعوجّ ، يظل ابداً معوجّاً ، يصعب ان يقوّم

اثمرت التجربة ايها السادة ، وافلح المسعى فتأثر هذا النشء الذي نتعهدهُ بالتربية الخلقية والرياضة الجسمية ، واستطعنا حيناً بعد حين ان نصل الى قلوبهم ونملك عليهم مشاعرهم حتى لقد غدوا يرون انهم قطع منا ، وانا لهم آباء ، أو اخوة كبار أعزاء ، واذا قابلنا بين حال هؤلاء الغلمان اليوم ، وحالهم بالامس حين شرعنا في هذا الجهاد الاجتماعي ، وجدنا في الحق فارقاً كبيراً . فلقد جاؤونا بالامس بأخلاقهم الاولية ، وطباعهم النزّاعة الى الشر والعيب والفوضى . وكان تعهد عنصر من هذا النوع أمراً ممتنعاً مجهداً . أما اليوم فقد تقوّمت عوجهم وصفت سرائرهم ، وأصبحنا نلمس في أعمالهم ظاهرة خلقية نبيلة . قد لا نراها في بعض من أوساط المتعلمين

***

لقد جاء احد ابناء المحلة اول ما جاء متأثراً بالشيء الكثير من الخلق السيء فلما يئسنا منهُ ، وابعدتهُ المحلة عن ابرابها ، امطرها وفريق من صبية الحارة مقذوفاً وفيراً من الطوب والحجارة . ولقد يأخذكم عجب اذا سقت اليكم من امره انهُ اليوم فتىً من خير فتية المحلة ، حسناً وسلوكاً وادباً

كان غلمان المحلة من قبل ، اذا تفوّق احدهم على زميله في لعبة من الالعاب الرياضية كان المغلوب للغالب من الشاتم ، وابى ان يبسط يده الى يد خصمه يصافحهُ مهما أريد على ذلك ، وأفهم نبل الروح الرياضي . اما اليوم فان هذا المغلوب ليقبل على غالبه يصافحه ويحييه ، وينئهُ بتفوقه شاعراً انهُ قد بذل جهده وأدّى واجبه وان خصمه ليس غريباً ولكنهُ أخ

لقد كانوا يرون في المحلة من قبل رأياً غريباً يرون ان كل ما فيها من ادوات يصح ان يتناولوه بالتلف وان كل ما غنم من هذه الادوات انما هو ربح حلال لهم . اما اليوم فانهم يرون انهم قوّم على كل ما تحتوي المحلة ، وانهم مسئولون ادبيًّا عما يفقد منها فاذا وقع شيء من ذلك فانهم يبادرون بالاتيان بمثله او بخير منهُ

توفي احدهم فاشتركوا جميعاً في التعبير عن شعورهم الاسيف ، وتعاونوا بكل ما يملكون من قروشهم القليلة على زيارة قبر اخيهم ، ومعهم ما يحملون من الصدقات المعروفة في مثل هذه الاحوال

كنا نعطيهم من مكتبة المحلة مجلات يطالعونها فاذا ما انتهوا منها ردوها الينا ، فكان بعض هذه المجلات لا يعاد ، وكان بعضها الآخر يعاد مشوهاً ممزقة منهُ صحائف ، او مقروعة منهُ صوره . اما اليوم فقد استقام امرهم ، ولم يعد شيء من ذلك يقع . بل لقد بلغت بهم دقة الحس ان اصبحوا يعدون المحلة بمجلات ، ويرقبون بانفسهم صيانتها في ايدي اخوانهم القارئين

كان عسيراً ان يذعنوا لمن يقوم عليهم . اما اليوم . فاذا اتفق ان تغيب القائم بسكرتارية شئون

المحلة عن دارهم ، فانهم يختارون من بينهم عليهم وليًّا ، ويبذلون في سبيل طاعته مايبذل أخ اصغر في سبيل طاعة اخيه الاكبر المحبوب

وانما نضرب في هذا الشأن الامثال لنرى كيف أفلح الروّاد في تهيئة هذا التطور النفسي ، وكيف أثمرت رسالتهم الخلقية ثمرتها المرجوّة . وكيف انا لم نكن مسرفين في الظن حين قطعنا بان غرائز هؤلاء الغلمان لم تكن تخلو من عناصر الخير وان في مستقرّ انفسهم حسًّا لطيفاً ووجداناً عامراً ، وانهم انما كانوا مفتقرين الى تلك اليد الخيرة البيضاء تمسهم برفق فتوقظ فيهم فضيلة نائمة وتخرجهم الى النور من ظلام المجتمع . ولقد زادنا ذلك يقيناً بان نظام المحلات اوفق ما يكون نظاماً يبدأ به في سبيل تهذيب البيئة وأصلح ما يكون نواة يستهل بغرسها من اجل الاصلاح الاجتماعي

***

تبدأ سن غلمان المحلة من الثانية عشرة وتنتهي في العشرين . وليس معنى ذلك ان مبدأ المحلة في صدد الخدمة العامة لا يسمح بتجاوز هذه السن ، او بقصر الجهود على امثال هؤلاء الغلمان. ان نظام المحلة ومبدأ الخدمة العامة فيها يتسعان لغير ذلك . يتسعان للشيوخ كما يتسعان للصبية ، يتسعان للنساء كما يتسعان للرجال . فجمهورنا المصري في حاجة الى الاصلاح . لا فرق بين عنصر وعنصر او جنس وجنس . لكن صعوبة التأثير في كبار السن وضعف الامل في اخضاعهم لنظريات التربية العلمية الحديثة — لكن مجابهة هذه الظاهرة من جانب ، ومجابهة الظروف الاجتماعية في مصر من جانب آخر ، وضرورة الحرص والحذر في بدء مثل هذه الحركة ، لكن ذلك كله الجأنا الى ان نبدأ بهذه السن . فاتسعت الخطوة . واثمرت الجهود . وانتجت آخر الامر ما سميناه بالاخوة الكبار

فلقد قسمنا ابناء المحلة اقساماً راعينا فيها التجانس الخلقي . وأوثقنا بينها عرى التواصل . وأقمنا على كل قسم رائداً . يتعهد شئون اخوته الصغار ويسعى ما يستطيع في سبيل حل مشكلاتهم وتسوية امورهم . وقد راق ابناء المحلة هذا النوع من الصلة . فشغفوا بهؤلاء الاخوة الكبار واخذوا يبثونهم ما في صدورهم. حتى انهُ ليصرحون باشياء ما كانوا ليصرحوا بها لولا هذه الصلة الروحية. وما اثمرت في النفوس من ثقة بهم واطمئنان اليهم ولقد بلغ من نجاح فكرة الاخوة الكبار ان تعدى النشاط جوانب المحلة الى بيوت هؤلاء الغلمان انفسهم . فهم يختلفون اليهم فيها بين حين وحين . ويتصلون في ذلك باهلهم وذوي قرباهم . ويوفقون من ذلك الى دراسة عملية حقة لهذه البيئة تمكن لهم ان يلمسوا مكامن الداء فيها . وتمكن لهم من بعد ان يشقّوا في سبيل الاصلاح طرقاً واضحة النهج . قائمة على اساس مشاهد ملموس

على ضوء هذه التجربة العملية ايها السادة. وامام هذا الاثر الذي أثمرته جهود المحلة في تلك المدة القصيرة ، نرانا اليوم اعمق ايماناً بوجوب تعميم المحلات في سائر نواحي القطر. ولو ان موارد الروّاد تتسع لذلك لكان لهم اليوم محلات عدة . ولكان جهادهم ارحب افقاً مما هو عليهِ اليوم . لكن

الموارد ضيقة محدودة . ورأس مال الروّاد يعتمد حتى الآن على ما يبذلون منهُ في سبيل مثلهم العليا من مطعم ومخاض . وهم في هذا يتقون عند حد مدفعهم . وهي طاقة ضعيفة لا تحتمل الارهاق

تلك جمرد المحنة في الفتيات الفقيرة غير المتعلمة . ولما كان الروّاد يرون ان اجدى سبيل يستكملون به رجولتهم سبيل الرحلات والمعسكرات . واستغلال اوقات الفراغ . فقد قاموا برحلات وانشأوا معسكرات ودعوا الى الاشتراك في هذا العمل الطلبة وشباب الموظفين المثقفين

وتقسم اوقات هذه المعسكرات الى اقسام ثلاثة

القسم الاول منها : يحتوي على دراسات منظمة لنواحي المجتمع المصري . يتكلم فيها فريق يعرفون بتعمقهم في الشؤون الاجتماعية

والقسم الثاني منها : يختص برياضة الجسم والاخذ بسبب من اللهو البريء

والقسم الثالث منها : يمس حياة المعسكر . اذ يعتمد المشتركون فيه على انفسهم فهم الذين ينظمون مضاجعهم ويعدون مأكلهم ومشربهم

هذه هي الاسس التي توزّع عليها اوقات المعسكرات التي تقيمها ولعلكم تعلمون ان الروّاد لم يدعوا جانباً من الجوانب التي يتطلبها الكمال الانساني الا حاولوا ان يأخذوا بسبب منهُ . فهم يحاولون ان يكسبوا الجسم سلامة وقوة . والنفس صفاء وسمواً . والعقل ثقافة ومعرفة . والخلق استقامة وصلابة

يريد ان يروّض الشباب المتعلم على التخشن والتقشف وممارسة المصاعب والاستهداف للمخاطر . يريد ان يعري الشباب المتعلم قليلاً من التأنق في هندامه والاستسلام الى اللين والطراوة . فاللين والطراوة ليسا من شيمة الرجال . يريد ان يغري الشباب المتعلم بتذوق المشاق في سبيل المثل العليا . هذا بعض ما يرمي اليهِ من اقامة الرحلات وانشاء المعسكرات . ولعلّ معسكر القناطر الخيرية الذي انشأناه في منتصف الشهر الماضي والاسس التي قام عليها فاتحة طيبة لتحقيق هذا الحلم الذي نعمل له : تكوين جيل من الشباب . قوي في جسمهِ . صلب في خلقه . نزاع لكل فضيلة : جيل يصح ان يسمى جيل الاشبال

ايها السادة : لدينا في المحلة الآن ثمانون صبيًّا او نحو ذلك . هم ثمرة مجهود الرواد منذ انشأوا محلتهم حتى اليوم ولقد يستضئل بعضكم هذه الثمرة . ويرى ان مجهود الرواد بطيء او انهُ متثاقل بليد . اما نحن فلا نرى في تلك الثمرة هذا الرأي . فهي من جانب ثمرة طبيعية نضجت في اوانها . وهي من جانب آخر ليست برهاناً على كل الرواد ولكنها آية على شدة يقينهم في هذا الشأن . القياس عندنا بالعمل في حد ذاته وليس بكثرة الثمر كائناً ما يكون . وان عملاً يؤدّى على مهل ويسير على اسس ثابتة وينتج نتاجاً ناضجاً قليلاً خير من عمل سريع يؤتي نتاجاً كثيراً غير ناضج . لم يضرنا اذن على عنت المسعى وطول الزمن ان نجني مثل هذا القطف اليسير . فالبحر الفياض في اصله قطرة . والبناء الشاهق في اصله لبنة